عناية الملك عبدالعزيز المبكرة بالطب الحديث

١٣٣١- ١٣٤٠هـ / ١٩١٣- ١٩٢١م

د. خالد بن حمود السعدون
قسم التاريخ - كلية العلوم والآداب - جامعة الشارقة

لم تكن في نجد خدمات صحية متطورة في بداية حكم الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه؛ فكان الناس مضطرين للتداوي بطرق بدائية حسب تقاليدهم الموروثة(١). ولذلك فتكت الأمراض المعدية والأوبئة بالسكان الذين كانوا يعانون أيضا من تكرار سنوات القحط والجفاف بما يؤدي إلى مجاعات تقضي على حياة أعداد كبيرة منهم(٢). ولكن هناك من يلطف قتامة تلك الصورة بالقول إن الأمراض كانت يومئذ

---

(١) الحميدان، يوسف بن عبدالله والعيسى، محمد بن أحمد، الإنجازات الصحية في عهد الملك عبدالعزيز (من عام ١٣١٩- ١٣٧٣هـ)، بحوث المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، (الرياض: منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦هـ)، ص ص ٥٨٩ - ٥٩٠.

(٢) الربدي، محمد بن صالح، الخدمات الصحية في منطقة الرياض، في (الوليعي، عبدالله بن ناصر "محرر"، منطقة الرياض: دراسة تاريخية وجغرافية، الرياض، ١٤١٩هـ)، ص ١٣٧.

لحسن الحظ محدودة ومعروفة فلا يستعصي علاج أكثرها بالوصفات الشعبية الشائعة(٣)، ولا تعني هذه الحقيقة استسلام الناس للأمر الواقع وعدم تطلعهم للحصول على شيء من وسائل العلاج الحديث، يدل على ذلك إقبالهم على طلب المشورة الطبية من بعض الرحالة الأوربيين الذين طوفوا في أنحاء من نجد خلال القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي(٤). كما يدل عليه سفر بعض المرضى من ذوي اليسار طلبا للعلاج في أقطار أخرى كالهند أو مصر أو العراق، أو في مستشفيات البعثة التبشيرية الأمريكية في الكويت والبحرين(٥). فضلا عن حرص بعض التجار على استيراد أدوية حديثة، كان بيعها يتم للمستهلكين دون وصفات طبية(٦).

وإذا كان ذلك دليلا على وعي قطاع من سكان نجد بأهمية العلاج الطبي الحديث، فلا بد من أن يكون عاهلهم عبدالعزيز أكثر وعيا منهم بتلك الأهمية، بحكم انفتاحه على العالم الخارجي ومتابعته لما يجري فيه من تطورات؛ فقد

---

(٣) الرويشد، عبدالرحمن بن سليمان، الرياض: المسيرة التاريخية والتقدم الحضري، مجلة الدرعية، الرياض، السنة ٣، العدد ٩، المحرم ١٤٢١هـ، ص ١٧٧.

(٤) الشبل، عبدالعزيز بن صالح، الأوضاع الصحية في شمال الجزيرة العربية من خلال ما كتبه الرحالة شارلز داوتي في كتابه (Travels in Arabia Deserta)، مجلة الدرعية، الرياض، السنة ٤، العدد ١٤، ربيع الآخر ١٤٢٢هـ، ص ٢٦١ وص ٢٨٢.

(٥) الحميدان والعيسى، المرجع نفسه، ص ٥٩٠.

(٦) الربدي، المرجع نفسه، ص ١٣٨.

عاش في الكويت حقبة من الزمن حين كان أطباء البعثة التبشيرية الأمريكية [البعثة العربية] يقدمون خدماتهم للجمهور في مدينة البصرة منذ سنة ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م(٧). وليس بين البصرة والكويت مسافة بعيدة، فكان الناس يروحون بينهما ويغدون ويتلقى بعضهم العلاج في تلك المؤسسة الحديثة، ويتداولون أخباره التي تصل مسامع بقية قاطني الكويت. ولم تلبث تلك البعثة الأمريكية طويلا حتى افتتحت مستشفى آخر في البحرين سنة ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢ ذاعت أخباره بين سكان المناطق المجاورة، فأمه بعض سكان منطقة الأحساء طلبا للعلاج(٨). كما وصلت شهرته إلى قلب نجد جاذبة بعض المرضى لطرق أبوابه(٩). فضلا عن قيام بعض العاملين في ذلك المستشفى بجولات علاجية - تبشيرية عند بوابة نجد الشرقية في مدن الأحساء وقراها(١٠)، ومن تلك الجولات زيارة القس صامويل زويمر (S. Zwemer) للأحساء مرتين قبل سنة ١٣٣٠هـ /١٩١٢م وتجوله في قراها بحجة تقديم الخدمات الطبية(١١). وبعد استرداد الملك

---

(٧) التميمي، عبدالمالك خلف، التبشير في منطقة الخليج العربي، (العين: مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٠م)، ص ٨٠ وص ٩١.

(8) NARA, RG 84, S. M. Zwemer to Mr. Sauer, U.S. Consul, Bagdad, dated Jan. 8, 1912 .

(٩) أرميردينغ، بول، أطباء من أجل المملكة، ترجمة عبدالله بن ناصر السبيعي، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٥هـ) ص ٣١.

(١٠) البسام، خالد، (معد ومترجم)، صدمة الاحتكاك: حكايات الإرسالية الأمريكية في الخليج العربي ١٨٩٢ - ١٩٢٥، (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٨م) ص ٤١.

(11) NARA, RG 84, Zwemer to Sauer, op.cit.

عبدالعزيز للأحساء سنة ١٣٣١ هـ/ ١٩١٣ م وجهت دعوة إلى الطبيب المبشر في مستشفى البحرين الدكتور بول هاريسن (P. Harrison) لزيارة الأحساء. فلبى الدعوة ومكث هناك شهرا كاملا عالج خلاله عددا كبيرا من المرضى(١٢). وتكررت زيارة الطبيب المذكور إلى تلك المنطقة حيث توجه نحو ميناء القطيف في شعبان ١٣٣٢هـ/ يوليو ١٩١٤م فلقي هناك استقبالا جيدا من المسؤولين الحكوميين وإقبالا من الأهالي(١٣).

وبناء على ذلك كله كانت فكرة توفير الرعاية الصحية الحديثة في مدينة الرياض تدور في مخيلة الملك عبدالعزيز آل سعود(١٤) منذ فترة مبكرة. فقد تم لقاء بينه وبين السير برسي كوكس (Sir P. Cox) المندوب السامي البريطاني في العراق في دارين في صفر ١٣٣٤هـ/ ديسمبر ١٩١٥م لعقد أول معاهدة بين نجد وبريطانيا. وجرى على هامش المفاوضات حديث بينهما عن ضرورة إرسال طبيب من

---

(١٢) أرميرديتغ، المرجع نفسه، ص ٣٥.

(13) IOR, L/P&S/10/462, No. C I- 97, Major S.G. Knox, Officiating Pol. Res. in P.G., to the Foreign Sec. to the Gov. of India, Foreign and Political Department, Simla, dated 8.8.1914 .

(١٤) ظل لقب "أمير" يطلق على الملك عبدالعزيز منذ استرداده الرياض سنة ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م حتى ذي القعدة ١٣٣٩هـ/ تموز ١٩٢١م حين اتخذ لقب "سلطان"، راجع:

IOR, R/15/5/25, Translation of a letter dated the 1st Muharram 1340(4th September 1921) from Shaikh Abdul Aziz bin Abdur Rahman al- Faisal as- Saud, G.C.I.E., Sultan of Nejd & Dependencies, to the P.A, Kuwait .

الكويت إلى الرياض لإدارة مستشفى هناك(١٥). وليس من الواضح ما إذا كان المقصود بالقول (من الكويت) هو أن يأتي الطبيب من عيادة البعثة الأمريكية هناك التي كانت قد افتتحت في سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م(١٦)، أو أن يتم إرسال طبيب بريطاني عبر الوكالة السياسية البريطانية في الكويت. ومهما يكن الحال لم تخرج تلك الفكرة إلى حيز التطبيق، إذ لم ترد أية إشارة لاحقة حولها لا في المصادر البريطانية ولا العربية. ولعل الفكرة كانت سابقة لأوانها، لأن تنفيذها يتطلب توفير مستلزمات مالية وفنية لم تكن متاحة لحكومة نجد حينئذ، فضلا عن صعوبة إقامة عناصر غريبة في وسط بيئة محافظة مثل قلب نجد، ولعل ذلك التحسب هو الذي جعل الملك عبدالعزيز يهمل قبل حوالي سنة من ذلك اللقاء الرد على رسالة الدكتور هاريسن التي طلب فيها إذنه لمواصلة رحلته من القطيف إلى الرياض(١٧).

ولكن عدم توفر إمكانات فتح مؤسسة علاجية حديثة في الرياض حينئذ لم يحل دون استمرار تطلع الملك عبدالعزيز آل سعود للاستعانة بالمتاح من الطب الحديث، حتى لو كان على نطاق فردي. وقد تهيأت له فرصة ذلك بقدوم عبدالله بن سعيد الدملوجي إلى الرياض، وهو من أهالي الموصل في العراق، درس الطب سنوات عديدة في إسطنبول وحصل في

---

(15) IOR, R/15/5/25, Major Keyes, Bahrain, to Major A.P. Trevor, Deputy Political Resident, Bushire, dated 2.2.1916 .

(16) http://www.csikuwait.org./history.htm

(17) IOR, L/P&S/10/462, No. CI- 97, op.cit.

الهدف أن يكون الطبيب بريطانيًا ليصبح صلة وصل بين الملك والإدارة البريطانية

نهايتها على دبلوم طبي، وكان عند نشوب الحرب العالمية الأولى عند أقرباء له في الأحساء مما اضطره لعرض خدماته على الملك الذي عينه مستشارا له في الأمور الطبية والسياسية معا(١٨). ويثير التاريخ الدقيق لبدء عمله في الرياض تساؤلا عن طبيعة عمله الطبي، فالمصادر المحلية تجمع على التحاقه بخدمة الملك عند بداية الحرب العالمية الأولى(١٩). وبذلك يفترض أن يكون في الرياض قبل حوالي سنة من لقاء الأمير بكوكس في دارين في صفر ١٣٣٤هـ/ ديسمبر ١٩١٥م. فإذا كان الحال كذلك يبدو مستغربا طلب طبيب آخر يأتي من الكويت لفتح المستشفى المزمع، إلا إذا كان الهدف أن يكون الطبيب بريطانيّا ليصبح صلة وصل بين الملك والإدارة البريطانية في الخليج، وهي فكرة طرحت لاحقا كما سيمر.

ويثور تساؤل آخر حول مقدرة الدملوجي المهنية؛ إذ يصفه الريحاني الذي احتك به عن قرب بالخبرة الطبية أثناء الحروب(٢٠). ومع أنه لم يبين الحروب التي عمل في ساحاتها إلا أنه يفترض بالطبيب الذي خبر العمل في ظروف الحرب

---

(١٨) فلبي، هاري سنت جون، قلب الجزيرة العربية، ترجمة صلاح علي محجوب، (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢)، ج ١، ص ١٢٦.

(١٩) الزركلي، خيرالدين، شبه جزيرة العرب في عهد الملك عبدالعزيز، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٢)، ط ٥، ج ١و٢، ص ٣٦٦ وحمزة، فؤاد، البلاد العربية السعودية، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠١)، ص ١١٥.

(٢٠) الريحاني، أمين، ملوك العرب، (بيروت: دار الجيل، د.ت.)، ج ٢، ص ٥٢٢.

أن تتراكم لديه بحكم الضرورة خبرات وتجارب تجعله طبيبا متمرسا واسع الحيلة في تخصصه، وهو فرض لم ينطبق على الدملوجي، فعلى الرغم من إشرافه على علاج الملك وذهابه إلى الهند لشراء الأدوية وبعض المستلزمات العلاجية اللازمة لذلك(٢١)، إلا أنه لم يشتهر بمقدرته الطبية في بيئة عطشى لمثل تلك المقدرة، ولم يرو عنه شيء يدل على تقديمه أي علاج للجمهور! والريحاني نفسه الذي امتدح خبرته لم يشر إلى استعانته بتلك الخبرة حين داهمته الحمى أثناء ضيافته لدى الملك عبدالعزيز في الرياض، بل أشار إلى قيام الملك نفسه بوصف أدوية حديثة لعلاجه وتقديمها بنفسه له وكأن الطبيب المذكور غير موجود(٢٢).

ومما يعزز تلك الشكوك أن الملك عبدالعزيز كان مع وجود الدملوجي لديه يطلب أحيانا العون الطبي من السلطات البريطانية في الخليج، ويحسن قبل استعراض تلك الطلبات الوقوف على أسباب توجه الملك نحو السلطات البريطانية طلبا للعون الطبي، مع العلم أن البريطانيين لم تكن لديهم مؤسسات علاجية مشهورة في الساحة الخليجية، بل كانت الشهرة من نصيب المستشفيات التابعة للبعثة التبشيرية الأمريكية في الخليج. ولعل تجنب الملك مفاتحة أطباء تلك البعثة مباشرة ناشئ من حقيقة أن حاجته لهم جاءت بعد توقيعه معاهدة صفر ١٣٣٤هـ/ ديسمبر ١٩١٥م مع

---

(21) IOR, R/15/5/25, No. 66-C, Keyes, P. A., Bahrain, to Sir P. Cox, P. R., Basrah, dated 4.12.1915 .

(٢٢) الريحاني، المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٥٨٨ - ٥٨٩.

البريطانيين. ومع أنه لم يكن ملزما بموجب نصوص تلك المعاهدة بعدم التعامل مع رعايا دولة أخرى غير بريطانيا إلا أن "روح" الفقرة الثالثة من تلك المعاهدة توحي بذلك، حيث نصت على ما يلي: "يوافق ابن سعود بهذا ويتعهد بالامتناع عن الدخول في أية مراسلة أو اتفاقية أو معاهدة مع أية دولة أجنبية..."(٢٣). علما بأن المسؤولين البريطانيين في الخليج كانوا يريدون إبعاد داخل نجد عن متناول أية دولة أخرى، حتى أنهم رفضوا مرارا الإذن لبعض الأطباء الأمريكيين العاملين في البحرين بالسفر إلى نجد، ومن ذلك عدم تشجيع الوكيل السياسي البريطاني في البحرين الدكتور هاريسن على القيام برحلته سالفة الذكر إلى القطيف سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م(٢٤).

وكما مر آنفا تكتنف قدرة الدكتور الدملوجي المهنية شكوك كثيرة منها عدم اكتفاء الملك به لمعالجة آثار جرح كان قد أصيب به أثناء خوضه معركة مع بعض المتمردين قرب الهفوف في شعبان ١٣٣٣هـ/ يوليو ١٩١٥م(٢٥)؛ فقد كتب الملك إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين في غضون شهر صفر ١٣٣٤هـ/ يناير سنة ١٩١٦م مبينا أن جرحه ذاك

---

(٢٣) صفوة، نجدة فتحي، (محرر ومترجم)، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، (بيروت: دار الساقي،١٩٩٨)، المجلد الثاني، ص ص ٧١١- ٧١٢.

(24) IOR, L/P&S/10/462, No. CI - 97, op. cit.

(٢٥) عن تفاصيل تلك المعركة راجع: السعدون، خالد، أحداث في تاريخ الخليج العربي، (الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠١)، ص ٢٥٥ وما بعدها.

ما زال يسبب له بعض المتاعب، وطلب منه إرسال طبيب لعلاجه بصورة عاجلة برفقة رسوله الذي حمل رسالته تلك للوكيل(٢٦). وقد وصف الدكتور الدملوجي الذي التقى الوكيل في البحرين وهو في طريقه للهند لشراء بعض الأدوية ذلك الجرح بأنه خطير، وأضاف أن الملك يعاني من جرح آخر أخف من سابقه أصيب به في معركة لاحقة مع أولئك المتمردين(٢٧).

وقد اهتم الوكيل السياسي البريطاني بتلبية طلب الملك، على الرغم مما يكتنفه من صعاب، إذ يوحي كلام الوكيل بأن الطلب لم يكن منصبا على أي طبيب، وإنما على طبيب مسلم لتفادي تعقيدات إرسال طبيب أوربي إلى قلب نجد على حد قوله، ونجح الوكيل في تأمين طبيب مسلم من رعايا بريطانيا الهنود كان ملحقا بالوكالة البريطانية في البحرين، واسمه موناني (A.S.Monani) وتقرر أن يغادر البحرين في الثاني من فبراير ليصل الرياض في حوالي الحادي عشر من الشهر نفسه. وبين الوكيل أن موناني كان شديد النفور من القيام بتلك الرحلة لأسباب عائلية، ولذلك فهو إذا أجبر على الذهاب يصر على العودة في أسرع وقت، وأضاف أن موناني يعتقد بناء على الوصف الذي تلقاه عن الجرح بوجود شظية من الرصاصة لا زالت غائرة تحته، وهو يرى إذا كان الأمر كذلك فعلا ضرورة الاستعانة بالأشعة لتحديد مكان الشظية، وسيكون من الأصوب في هذه الحالة جلب الملك نفسه إلى

---

(26) IOR, R/15/5/25, No. 15 - C, Major Keyes, P.A., Bahrain, to P. R. in the P. G., Bushire, dated 1/2/1916.

(27) IOR, R/15/5/25, No. 66- C, op.cit.

العقير أو القطيف، لأن جهاز الأشعة والفني العامل عليه لا يمكن الاستغناء عنهما فترة طويلة تكفي لنقلهما إلى الرياض للقيام بالتصوير هناك، وبناء على ذلك طلب الوكيل من المقيم السياسي البريطاني في بوشهر إعلامه بإمكانية إرسال جهاز الأشعة المطلوب إلى البحرين والبت في خيار إرساله إلى الرياض أو وصول الملك عبدالعزيز إلى الساحل(٢٨).

ولكن ترتيب إرسال ذلك الطبيب إلى الرياض وصل فجأة إلى طريق مسدود حين أعلن موناني لاحقا رفضه الجازم للسفر، مبررا ذلك بسيطرة حالة هستيرية على زوجته خوفا من البقاء وحدها في البحرين، وعزز موناني رفضه بالقول أنه موظف مدني غير ملزم بتنفيذ كافة الأوامر التي يصدرها الوكيل إليه بصرف النظر عن قناعته هو بها، ونقل الوكيل الأمر فورا إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج السر برسي كوكس الذي كان حينها في مدينة الكوت العراقية على نهر دجلة بصفته كبير الضباط السياسيين المرافقين للحملة البريطانية الزاحفة لاحتلال بغداد، وطلب الوكيل الموافقة على إرسال الطبيب فان فليك (Van Vlack)(٢٩)، والإيعاز للوكيل السياسي البريطاني في الكويت بوضع مساعده الجراحي على أهبة الاستعداد لأداء تلك المهمة على وجه السرعة، وختم الوكيل السياسي في البحرين برقيته إلى المقيم بالتعبير عن قناعته بعدم

---

(28) IOR, R/15/5/25, No. 15 - C, op.cit.

(٢٩) هو Dr. H.G. Van Vlack أحد أطباء المستشفى التبشيري الأمريكي في البحرين.

حراجة الوضع الصحي للملك على الرغم من قول الأخير له في رسالته إن كل يوم تأخير في إرسال الطبيب إليه يبدو مثل شهر بالنسبة له(٣٠).

وفي غضون إجراء تلك الاتصالات بين المسؤولين البريطانيين من أجل تهيئة الطبيب المطلوب وإرساله إلى الرياض تطور الوضع الصحي للملك بشكل انتفت معه حاجته لذلك الطبيب؛ فقد وصلت منه في ربيع الثاني ١٣٣٤هـ/ فبراير ١٩١٦م رسالة موجهة إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين، شكره فيها على جهوده الرامية لتأمين الطبيب، وأعلمه بأن تدفق الصديد من جرحه قد توقف وأمكن إخراج شظية الرصاصة من الجرح، وأضاف الملك أنه تماثل للشفاء التام حتى أنه يفكر بالقيام برحلة خارج الرياض، وختم رسالته بالقول إن إرسال الطبيب غدا لذلك لا لزوم له(٣١). ولكن رسالة الملك هذه وصلت للوكيل بعد أن كان قد أرسل بالفعل فريقا طبيا مكونا من الطبيب فان فليك ومساعد الجراح هدسن (Hudson). ولم يصل الرجلان إلى أبعد من الهفوف حيث مكثا هناك أربعة أيام عاجزين عن مواصلة رحلتهما نحو عاصمة نجد نتيجة لغارات كان بعض الأعراب يشنونها على الطريق الواصل بين الأحساء والرياض(٣٢).

---

(30) IOR, R/15/5/25, Keyes to Trevor, op. cit.

(31) IOR, R/15/5/25, Translation of a letter dated Rabi-ul-Thani 1334 (February 1916) from Shaikh Abdul Aziz bin Abdur Rahman al Faisal Ruler of Nejd and Hasa to Major T. H. Keyes, P. A., Bahrain.

(٣٢) راجع: صفوة، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٦٤٦.

فاضطر الرجلان نتيجة لذلك للعودة إلى البحرين في الثامن عشر من ربيع الثاني ١٣٣٤هـ/ الثالث والعشرين من فبراير ١٩١٦م(٣٣).

ولم تكن تلك خاتمة محاولات الملك عبدالعزيز لجلب العلاج الطبي الحديث إلى عاصمة ملكه، فقد تجددت المحاولة في السنة التالية، حين وجه دعوة إلى الدكتور هاريسن للقدوم إلى الرياض، وكانت الدعوة ودية جدا على حد وصف عبدالله فلبي (Philby)(٣٤). ولم يبين فلبي ما إذا كانت تلك الدعوة قد وجهت إلى هاريسن مباشرة أو عن طريق الوكيل البريطاني في البحرين، كما لا تتضح جلية الأمر من رواية منسوبة إلى الطبيب نفسه، حيث تفيد بأنه شخصيا استلم ظرفا مغلقا من "الشيخ" عبدالعزيز آل سعود يحوي دعوته لزيارة عاصمته الرياض، فبادر قبل تلبية الدعوة للحصول على موافقة القنصل البريطاني(٣٥). وفي اليوم الثالث لاستلام الدعوة كان هاريسن في طريقه نحو الهفوف مع بعض مساعديه. وحال وصولهم الرياض في ذي القعدة ١٣٣٥هـ/ سبتمبر ١٩١٧م افتتحوا عيادة صغيرة كان إقبال الناس عليها كبيرا طيلة أيام عملها التي استمرت

---

(33) IOR, R/15/5/25, No. 26 - C, Major Keyes, P. A., Bahrain, to P. R. in the P. G., Basrah, dated 24.2.1916 .

(٣٤) صفوة، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٧٠٦.

(٣٥) أرميردينغ، المرجع نفسه، ص ص ٤٣ - ٤٤. والأصح القول "الوكيل السياسي" بدل "القنصل"، حسب التسميات البريطانية المحددة حينئذ.

عشرين يوما على حد قوله(٣٦). وعزا فلبي سبب انتهاء عمل الدكتور هاريسن في الرياض إلى "خطأ ارتكبه" دون بيان لماهية ذلك الخطأ(٣٧)، ولكن الدكتور نفسه لا يشير إلى أي خطأ حدث، ويقول إن سبب عودتهم من الرياض هو نفاد مخزونهم من الأدوية مما أضطرهم للمغادرة على الرغم من إلحاح المرضى والأهالي عليهم بالبقاء(٣٨). ولعل رواية فلبي لا تخلو من رغبة البريطانيين الدفينة للتعكير على أي نجاح يحققه طرف دولي آخر غيرهم في أصقاع كانوا يطمحون في إبقائها مغلقة أمام أي نشاط غير بريطاني، ويؤكد الإقبال الذي صادفه عمل هاريسن في الرياض ما سبق قوله من تعطش الناس للحصول على العلاج الحديث على الرغم من قلة إمكاناتهم المادية المتاحة.

افتتحوا عيادة صغيرة كان إقبال الناس عليها كبيرا طيلة أيام عملها

ولعل ذلك النجاح الطبي "الأمريكي" في الرياض كان محفزا لتفكير البريطانيين بوضع ضابط صحي بريطاني دائم بمعية الملك عبدالعزيز، فقد كتب المبعوث البريطاني إلى نجد "فلبي" رسالة من بريدة إلى السير برسي كوكس في بغداد في ذي القعدة ١٣٣٦هـ/ سبتمبر ١٩١٨م مؤكدا على أن يكون الضابط الصحي المقترح إرساله ذا معرفة كافية باللغة العربية، وإلا سيكون عديم الفائدة. وأضاف أن الملك نفسه لا يرغب بأي ضابط تكون لغته العربية ضعيفة، وبين

---

(٣٦) البسام، المرجع نفسه، ص ص ٤١-٤٣.

(٣٧) صفوة، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٧٠٦.

(٣٨) البسام، المرجع نفسه، ص ٤٤.

فلبي أن مهامه السياسية باعتباره مبعوثا بريطانيا ستناط عند مغادرته بالضابط الصحي المقترح، وبذلك سيقوم بوظيفتين صحية وسياسية معا(٣٩). ولا يبدو أن ذلك المقترح قد دخل حيز التنفيذ بالفعل، إذ لا تشير الوثائق البريطانية أو المصادر المحلية إلى وجود مثل ذلك الضابط، خاصة وقد كانت نجد في أمس الحاجة إليه حيث اجتاحها الوباء بعد كتابة رسالة فلبي تلك بشهرين. وقد وصف الملك عبدالعزيز نفسه الحال في رسالة وجهها إلى فلبي في ربيع الأول ١٣٣٧هـ/ ديسمبر ١٩١٨م وجاء فيها: أن الحمى انتشرت في نجد قرب نهاية شهر صفر لمدة عشرة أيام وحصدت أرواح عدد كبير من السكان، ومن بينهم زوجته الأميرة الجوهرة بنت مساعد وولداه تركي وفهد(٤٠). وقد حدث ذلك كله بشكل أسرع من سير العون الطبي الذي طلبه الملك من البحرين والمتمثل بالطبيب هاريسن نفسه؛ فقد وصل الطبيب المذكور الرياض مطلع ١٩١٩م وأسهمت جهوده في التخفيف عن عدد كبير من المصابين بذلك الوباء(٤١).

وتجددت حاجة الملك عبدالعزيز للعون الطبي الحديث في صيف سنة ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م، فقد كتب في السادس من شوال ١٣٣٨هـ/ الثالث والعشرين من يونيو ١٩٢٠م رسالة إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين، أخبره فيها بمرض

---

(39) IOR, R/15/5/103, No. M - 182, Philby, Buraida, to Political, Baghdad, dated 4/9/1918 .

(٤٠) صفوة، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨١٩.

(٤١) أرميردينغ، المرجع نفسه، ص ٤٧.

بعض أفراد أسرته، ورجاه سرعة إرسال الدكتور هاريسن إلى الرياض، والتمس رده الفوري على طلبه؛ فأبرق الوكيل حال تسلمه الرسالة إلى المندوب المدني البريطاني في بغداد يعلمه بأن هاريسن موجود في الهند، وأن زميله الدكتور كوينيلا (Quinalla) لن يعود إلى البحرين قبل ثلاثة أشهر تالية، ولذلك فأنه يحيل للمندوب أمر تقرير كيفية الرد على طلب الملك، وبين الوكيل قيامه بسؤال عبدالله القصيبي وكيل الملك عبدالعزيز في البحرين عن طبيعة الداء الذي ألم ببعض أفراد الأسرة المالكة في الرياض، فنفى القصيبي علمه بأي شيء، ولكنه لمح إلى احتمال أن يكون الطبيب مطلوبا لمعالجة جريح، وختم الوكيل البريطاني برقيته بالقول إن طبيبا يدعى ديم (Dame) وصل إلى البحرين حديثا من أمريكا، ولكنه لا يراه صالحا لأداء المهمة في الرياض لجهله باللغة العربية(٤٢).

ورد المندوب المدني على الوكيل مخولا إياه بكتابة رسالة على لسانه إلى الملك تخبره بغياب هاريسن وعدم القدرة على تأمين إيصال طبيب له من بغداد في وقت ملائم. وطلب المندوب أن تتضمن الرسالة إطلاع الملك على وجود الدكتور ديم في البحرين وعدم تكليفه بالمهمة لأنه غير ملم باللغة والتقاليد العربية(٤٣). ويبدو من المرجح توقف الأمر عند ذلك الحد وعدم ذهاب الطبيب ديم للرياض بسبب تلك المشكلة

---

(42) IOR, R/15/5/25, No. 182 - C, P. A., Bahrain, to C. C., Baghdad, dated 5.7.1920 .

(43) IOR, R/15/5/25, No. 8166, Civil Commissioner, Baghdad, to P. A., Bahrain, dated 7.7.1920.

اللغوية، ولكنه توجه إليها فعلا في نهاية تلك السنة(٤٤)، ولعله خلال الأشهر الفاصلة بين التاريخين الآنفين استطاع تطوير مهاراته اللغوية بما مكنه من القدرة على التفاهم مع محدثيه العرب فزال بذلك الحائل الذي منع توجهه للرياض أولا.

وظهرت الحاجة لطبيب في الرياض مرة أخرى صيف سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م؛ فقد أبرق السير برسي كوكس المندوب السامي البريطاني في بغداد إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين في التاسع من ذي القعدة ١٣٣٩هـ/ الخامس عشر من يوليو ١٩٢١م موجها إياه للكتابة باسمه إلى الملك ليعلمه عن "سماعه" بحاجته إلى خدمات طبيب، وأنه موشك على تلبية طلبه(٤٥). ويلفت النظر هنا حديث المندوب عن "سماعه" بحاجة الملك تلك، مما يدل على أن الملك لم يفاتحه مباشرة بطلبه، ولعله كتب عن ذلك لأحد الوكيلين السياسيين البريطانيين في البحرين أو الكويت. وكتب السير برسي كوكس لاحقا للملك يخبره بعزمه على إرسال الدكتور مان (Mann)(٤٦) إليه. بيد أن الملك رد برسالة مؤرخة في الأول من محرم ١٣٤٠هـ/ الرابع من سبتمبر ١٩٢١م استلمها الوكيل السياسي البريطاني في الكويت، وتضمنت الشكر لكوكس على قراره ذاك، والاعتذار عن استقبال الدكتور مان على الفور لتنقل الملك خارج عاصمته حينئذ، ولذلك طلب الملك

---

(٤٤) أرميردينغ، المرجع نفسه، ص ٤٩.

(45) IOR, R/15/5/25, No. 856 - S, Highcom., Baghdad, to Political, Bahrain, dated 15.7.1921.

(٤٦) أحد أطباء المستشفى التبشيري الأمريكي في البحرين.

استبقاء الدكتور المذكور في البحرين إلى أن يستقر في مكان معين فيستدعيه إليه(٤٧). وقد أبرق الوكيل البريطاني في الكويت فحوى رسالة الملك تلك إلى كوكس في بغداد في السابع من محرم ١٣٤٠هـ/ العاشر من سبتمبر ١٩٢١م(٤٨).

ولا بد من الوقوف هنا أمام سبب مسارعة الجانب البريطاني للتجاوب مع طلبات الملك عبدالعزيز الطبية، ومرد ذلك دون ريب أهمية الملك السياسية في مجاله الإقليمي، مما جعل السلطات البريطانية منذ نشوب الحرب العالمية الأولى حريصة على استمالته إلى جانبها، ولعلها كانت تخشى أن يجد ذلك العون إن تلكأت هي في تقديمه لدى جهات أخرى تقف على مرمى حجر منه، وأقربها المؤسسات الصحية التبشيرية التابعة لأمريكا(٤٩). كما كان وجود أولئك الأطباء وسيلة لجمع المعلومات عن الأوضاع داخل نجد(٥٠)، وكانت تستخدمهم أيضا لتوصيل معلومات معينة إلى الملك نفسه لترك انطباعات لديه تتلاءم مع المصالح البريطانية(٥١).

---

(47) IOR, R/15/5/25, No. 149 - C, P. A., Kuwait, to the Secretary to H. E. the High Commissioner, Baghdad, dated 19.9.1921, with enclosure .

(48) IOR, R/15/5/25, No. 147 - C, Political, Kuwait, to Highcom., Baghdad, dated 10.9.1921 .

(٤٩) صفوة، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٧٠٦.

(50) IOR, R/15/5/25, No. 15- C, op.cit.

(51) IOR, R/15/5/25, No. 149 - C, op.cit.

الخاتمة

تظهر الصفحات السابقة وجود وعي بأهمية العلاج الطبي الحديث لدى قطاع ذي شأن من سكان نجد جعلهم يتطلعون نحو الحصول على تلك الخدمة، ويغتنمون أية فرصة تمكنهم من ذلك. وكان عاهلهم الملك عبدالعزيز آل سعود أكثرهم وعيا وتطلعا في هذا الميدان؛ بيد أن موارده المالية الضئيلة حينئذ كانت تحول بينه وبين وضع تطلعاته تلك موضع التطبيق، فلجأ بواقعيته المشهورة لمحاولة إدخال المتاح من وسائل الطب الحديث إلى بلده باللجوء إلى طلب العون من السلطات البريطانية الموجودة في المنطقة حينذاك، وكانت تلك السلطات تتجاوب مع طلباته فتمده ببعض الأطباء مستعينة في الغالب بأطباء البعثة التبشيرية الأمريكية العاملة في البحرين، وكان ذلك التجاوب ناشئا من تقديرها لمكانة الملك الإقليمية ورغبتها في تحقيق بعض المنافع السياسية والمعنوية التي تخدم مصالحها، واستطاع الملك عبدالعزيز الإفادة من تلك الخدمات الصحية دون تعريض بلاده ومواطنيه لأي تأثيرات تبشيرية.